الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ — الملك الكاثوليكى : ١٦٨٥ — ١٦٨٨

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة[١] التى رسمها فانديك فى اللونين الأزرق والذهبى لدوق يورك وهو فى الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البرىء الحيى سيقضى قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويكمل آخر الأمر ، فى « الثورة الجليلة » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن فى الصورة التى رسمها ريلى[٢] للشخص عينه تحت اسم جيمس الثانى ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لاينثنى . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا فاجعاً ، وفيه ، وكما يحدث فى كل التراجيديات أو المآسى الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثانى ، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت فى عمله فى البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضيه ، فى النشاط الحكومى والإدارى ، والاعتدال فى الإنفاق ، وفى ارتباطه بكلمته . أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسدد ديونها ، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقته مع آخر عشيقاته كاترين سدلى . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها العطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة انجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكا من سلطانها عليه(٣) . إن الأسقف بيرنت الذى ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح مخلص بطبيعته ، ولو أنه فى بعض الأحيان متلهف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى(٤) » وكان مقتصدا ينعى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيما بالشعب فى موضوع الضرائب(٥) . إن ما كولى بعد أن دون ثمانمائة صحفية عن حكم جيمس الذى لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه تحلى بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لا بل كاثوليكيا معتدلا ، لكان عصره عصرا زاهرا مجيدا(٦) » .

وتفاقمت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورا متعجرفا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلة منهم ، وتمسك تمسكا حرفيا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له المزاج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى انجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصا لأمه وأخته الكاثوليكتين ، وكان طوال الخمسة عشر عاما السابقة محاطا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الانجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حية فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكى ، يميل ، عاجلا أو آجلا ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الايطالى . ان انجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكى لابد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى والفكرى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئا قليلا : أنه عين هاليفاكس رئيسا لمجلس الملك ، وسندرلند وزيرا ، وهنرى هايد (أرل كلارندن الثانى) حاملا لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة انجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة وعند تتويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك انجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لمدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدوانا مباشرا على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانبى واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتس أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الأيمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهرة ، خمس مرات سنويا طيلة بقائه على قيد الحياة . وعاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفاءه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطىء الجنوبى الغربى لانجلترا ، فى مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكى . وأصدر مونموث بلاغا وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن وللمؤامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثانى ، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحريات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة فى ١٧ يونية ، وأعدم فى ٣٠ يونيه ، وبذلك أخفق الجناح الشمالى للثورة . ولكن أهالى دورستشير — وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه فى ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثانى ملك انجلترا . ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية فى سدجمور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب انجلترا قبل الحرب العالمية . ولاذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفريز ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالإنضمام إلى الثورة أو التحريض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفريز قذف فى قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدموية » (سبتمبر ١٦٨٥)(*) . وشنق نحو أربعمائه ، وحكم على ثمانمائه بالعمل الإجبارى فى مزارع جزر الهند الغربية(٧) . وكانت البرابث فى ١٥٦٩ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشية ،

(*) Assizes الجلسات الدورية للمحاكم العليا فى كل مقاطعة

ولـكن جفريز تفوق عليهما فى إرهاب المتهمين والمحلفين والتجهم والعبوس ، وصب اللعنات على ضحاياه ، والتحديق فى وجوههم فى كثير من الخبث ، والإدانة لمجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة(٨) . وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولـكن ما أن تمت الإبادة الـكاملة وخمدت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء ، وعينه رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامى فى إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طلب من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذى يقضى باقصاء الـكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق فى قانونية الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشىء من هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الـكاثوليك فى وظائف الدولة . ولما اعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذى أعلن تحوله إلى الـكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم نانت(٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التى يتمتع بها البوربون ، لما تردد فى إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت فى إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقه بالفعل ، وأن لويس الرابع عشر فى نظره هو المثل الأعلى للملك . وقبل الاعانات من لويس لفترة من الزمن ، ولـكنه أبى عليه أن يملى سياسة الحـكومة الانجليزية . فتوقفت الاعانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بانجلترا منه بالنسبه لبلاده . وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نراه يحذر جيمس من مغبه التسرع فى تحويل إنجلترا إلى الـكاثوليكيه . كما أن البابا إنوسنت الحادى عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحه . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزى يعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الـكنيسه الـكاثوليكيه فى روما(١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الدينى للكاثوليك الانجليز ، كما حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بنز ولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير فى الحكومة(١١). إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، ولكنه كان يخشى قوة لويس الرابع عشر التى تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل فى إمكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ عهد مارى تيودور — ليوضح لجيمس أن أى تصدع فى العلاقة بين البرلمان والملك لابد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية(١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصح . إنه أحس ، وكان فى الثانية والخمسين حين اعتلى العرش ، أنه قد لايتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التى ينشدها والتى يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا فى أن ينجب ابنا ، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية ، وتقلب عمله رأسا على عقب ، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب بنز والملكة وسلطانهما على كل نصح بالتروى والتريث . ولم يكتف الملك بالذهاب إلى القداس ، تحفه الجلالة والمهابة الملكية ، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ، وعين الكاثوليك فى المناصب العسكرية ، وحرض القضاة (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه فى أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التى فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان . وعطل العمل بالقانون الذى يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية علانية . وأصدر فى يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين القاء عظات فى الخلافات المذهبيه . ولما خطب الدكتور جون شارب فى « دوافع

المرتدين » أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسه الإنجليزية ، هنرى كمبتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسه الأنجليكانيه ، فرفض كمبتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ ، « محكمه كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفريز ، وحاكمت كمبتون بتهمه شق عصا الطاعه على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسه الأنجليكانيه ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقه ، تقول بدأت تقلب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسه الأنجليكانيه إلى جانب المصالحه والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسه . وبدلا من ذلك انتهج سياسه التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسه الرسميه . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنيه على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقه تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينيه ، ومنح الحرية الدينيه للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينيه المسالمه . وأخلى سبيل كل المسجونين بسبب المخالفات الدينيه . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أبقت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكيه داخل الدور الخاصه فقط . وأكد للكنيسه الرسميه أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونيه . ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهليه التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك فى إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليفاكس الذى كان فى هاتيك الأيام ألمع عقلية فى انجلترا ، للمعركة بكتيب لايحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا فى هـذا العصر(١٣) » حث فيه البروتستانت ان يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذى قدم إليهم الآن ، صدر عن ملك موال لـكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتنكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والضمير وبين كنيسة لاتخطىء ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوهم بالأمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالأمس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور(١٤) » . ومن سوء الحظ أن الـكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع روما فيما يتعلق بأبناء الشيطان ، وأنها فى السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تعفيهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية . وأسرع رجال الدين الأنجليـكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين والـكويـكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الراهن ، ووعدوهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل من البرلمان والـكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولـكن الأغلبية نأت بجانبها فى تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات انجلترا لمدة سنوات عدة من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الـكنيسة الأنجليـكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى ، ومنح درجة فخرية لدبلوماسى مسلم ، على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا فى أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكانى ، وتقرر ألا يلتحق بهما أى كاثوليـكى . ورغبة فى كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكانى راهبا بندكتيا يسعى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعه وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعه . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفى نفس العام رشح الملك لرياسه كلية مجدلن فى أكسفورد ، رجلا لايتمتع بغزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكيه ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكانى ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئه الانتخابيه رفضوه كذلك ، ففصلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر فى أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفى يوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا فى المجلس المخصوص (الملكى) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان فى عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته . وكان فى هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبه(١٥) . وفى ١٦٨٨ عين أربعه من الأساقفه الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسه الكاثوليكيه فى انجلترا ، وخصص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين فى أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسه تساندها وتعاونها الدولة .

وفى ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذى مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير » لكل الانجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لابد أن

يعتمد التعيين فى الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا للمذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلافات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان للوسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته فى كل كنيسة فى الأقاليم فى انجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدام رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجماهير ، أمر له سوابقه الكثيرة فى انجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغيضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفى ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أوضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لايجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس فى الاعلان ما يخدش أو يسىء إلى كرامة أحد . ووعد بأنه سوف ينظر فى ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا فى الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره .

وفى صبيحة اليوم التالى بيعت ألاف النسخ من هذه الظلامة فى شوارع لندن ، فى الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يجافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه المشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلامة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلامة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوها فى الكنائس الست والتسعين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أوقذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكى يتفادوا السجن فى الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشراف المملكة ، ليسوا فى حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالى وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفى يومى ٢٩ و٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة ـ أمام محكمه الملك ـ أربعه قضاة مع هيئه المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة فى قاعه يحيط بها عشرة آلاف من أهالى لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتيه ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التى حدثت اليوم(١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التى أضرمت فى الهواء الطلق . وسار الناس فى موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبه . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لاينبغى التسامح مع الكاثوليكيه ، وعند ذوى الادراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان فى سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، فى الواقع ، حتى ولو لم تكن من الناحيه النظرية ، ملكيه دستورية ، لاملكيه مطلقه .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمه ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعته له الملكه فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن ينشىء هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكيه ، وكان يمكن للوالد والولد ، فى وجه أيه معارضه أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس ـ ألا وهو الملكيه القديمه ، تعيش فى وئام ووفاق مع الكنيسه ، فى انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة فى ظل هذه العقيدة الحقه الوحيدة العالميه .

٢ — الاطاحة بالعرش والملك فى المهد

ربما كانت هذه الولادة التى جاءت قبل الأوان هى التى جلبت الكارثه على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتيه مع جيمس فى أن هذا الولد قد يواصل السعى لاعادة الكثلكه ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذى أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتيه فى أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكه وليدا اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الأبنه البروتستانتيه مارى عن وراثه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو مارى ، على أنها أمل البروتستانيه الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس مارى على العرش لتكون ملكه انجلترا .

ولكن مارى كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة فى المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه فى أنه مجرد زوج الملكه ؟ لماذا لايعرض عليه الاشتراك فى الحكم مع مارى ؟ وفوق كل شىء ، أنه هو أيضاً يجرى فى عروقه الدم الملكى الانجليزى . أن أمه كانت مارى أخرى ، وكانت ابنه شارل الأول . وليس فى نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجه الملكه . ومن الجائز أن الأسقف بيرنت الذى كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هربا ، عند إرتقاء جيمس العرش ـ أقنع مارى ، بايعاز[١٧] من وليم ، أن تتعهد بالطاعه التامه لوليم « فى كل الأمور » أيا كانت السلطه التى تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه فى يديه هو ، لأنها لاترغب إلا فى أن يعمل هو بالوصية التى تقول : أيها الأزواج أحبو زوجاتكم ، كما تعمل هى بالوصيه التى تقول : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن فى كل شىء[١٨] » وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقته السيدة

فلبير(١٩) ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يحوز لهم فوق كل شيء ، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذى يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت فى كسب والد زوجته (جيمس) فى تحالف ضد ملك فرنسا الذى كان يحطم توازن القوى والحريات فى أوربا ، ولما خاب فأله ، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للمقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التى إنظمها مونموث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق(٢٠) ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش انجلترا . ومتى ولد للملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق ماري فى العرش . وفى أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفلت إلى انجلترا ليقيم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت. وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبى ، والأسقف كمبتون وغيرهم . وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لايئم عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم فى نضاله من أجل العرش .

وفى يونيه ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم فى التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذى يقصر حق تولى الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكانى(٢١) . أن هذا البيان الرسمى للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما تفشى مولد إبن لجيمس على فرض وليم فى أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيه ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثانى عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل دانبى ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذى أعدم فى

١٦٨٣)، هترى سدنى (أخو الجرنون) ، والأسقف كمبتون . أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعا بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلند وجون تشرشل، وكلاهما آنذاك فى خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له(٢٢) . وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم خيانة ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكفهم عمدا ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أق شروزبرى الكاثوليكى السابق الذى تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فى توجيه الغزو(٢٣) .

ولم يكن فى مقدور وليم أن يتخذ أى اجراء فورى . لأنه لم يكن على ثقه من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده فى أيه لحظه . وخشيت الولايات الألمانيه كذلك مهاجمه فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضا على غزو وليم لانجلترا ، لعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هبسبرج فى النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثيرا كيتهما فى بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكى يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحمله بركته ورضاءه السامى . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكيه أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحه بجيمس الكاثوليكى . وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصداقه والتحالف» القائمه بين انجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدى هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نفى وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمه ألمانيا ، لاهولندة (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعيه العموميه للمقاطعات المتحدة ، التى تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حمله قد تؤدى بإنجلترا إلى الدخول فى

تحالف ضد فرنسا .

وفى ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخمسمائة فارس ، وأحد عشر ألفا من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد فى فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية فى أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن عزقته العاصفة . وفى ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالا بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيهم فى « ثورباى » ، وهو منفذ على المانش على شاطىء دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفريز وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع فى سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق الملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، يخيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل(٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنمركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التعس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جنجز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوما مزهوا مختالا ، حين وجد أن إبنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليفاكس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيسا لحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتهول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسهلون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس فى الفخ الذى نصب له ، وغادر انجلترا إلى فرنسا (٢٣ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاما بعد سقوطه ، ولكنه لم ير انجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن فى التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره فى حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذى آثاره البروتستانت فى لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع فى كوفنترى . وأعلن « المؤتمر » الذى انعقد هناك فى أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتمعون أن يتوجوا مارى ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « باعلان الحقوق » الذى سنه وأصدره البرلمان من جديد فى ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه صراحة) جزءا حيويا أساسيا فى قوانين المملكه :

حيث أن الملك السابق جيمس الثانى .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكه من جذورها :

١ — بانتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بانشاء « محكمه خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، فى غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

٥ — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — باقامه الدعوى أمام « محكمه الملك » فى مسائل وقضايا هى من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكه

وشرائعها المعروفه . ولما كانوا (أعضاء البرلمان ـ المجتمعون) على ثقه تامه من أن .. أمير أورانج .. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التى أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينيه وحرياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين فى وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم ومارى ، أمير وأميرة أورانج ، ملكا وملكه على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء ..

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبى على أنها كفر وهرطقه ، تلك النظرية الدنسه اللعينه .. التى تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئه فى المقر البابوى فى رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسه أو من العرش .. كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغى أن يكون . لأى حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبى ، أية ولايه أو سلطه أو سيادة أو سلطان .. فى هذه المملكه . أسألك العون على هذا يارب » .

وحيث ثبت بالتجربه أنه لايتفق مع سلامه هذه المملكه ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكه متزوجه من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أوأشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسه فى رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدينون بالمذهب البابوى ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له ، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثه أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومه هذه المملكه(٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخى عبر من النتائج الجوهرية لما أمنته انجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلة » : وهى الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية لبرلمان ، التى طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت ، وحماية المواطن

ضد السلطة التعسفية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش انجلترا أو المشاركة فيه . ويلى هذه النتائج فى الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة فى الارستقراطيه مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون فى مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية « المطلقة » المتمسكة « بحق الملك الإلهى » تحولت إلى أو ليجاركية اقليمية أو ذات علاقه بالملكيه الخاصه للأرض . وهى أوليجاركيه تميزت بالاعتدال والجد والبراعه فى إدارة دفه الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعه والتجاره والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطه العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن انجلترا حريتها ، لتحكمها أوليجاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتى ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمه ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة(٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقيه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم انجلترا ، على أن توجه الارستقراطيه الحاكمه سياسه البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسميه .

وثمه عناصر مخزيه غير كريمه كانت فى « الثورة الجليله(٢٧) » . فما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر انجلترا إلى استدعاء جيش من هولندة ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه فى الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسه أن برر وقدست سلطته الإلهيه المطلقه فى وجه أيه ثورة أو أى عصيان . كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التى اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت فى الأحداث مع رفاتهم ، أما حسناتهم التى أدوها فقد بقيت بعدهم وآتت أكلها . أنهم حتى فى إقامه الأوليجاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لابد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الإنتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزى قلعته ، آمنا نسبيا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما فى هذا التوفيق الذى يدعو إلى الاعجاب بين النظام والحرية » وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزف من أنف للملك المنزعج المنهوك الأخرق الذى تخلى عنه الجميع فى ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين الملك لمجلسه الخاص : دانبى رئيسا ، وهاليفاكس حاملا الأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخاصة الملكية ، وجلبرت بيرنت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركيز هاليفاكس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعدمه البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفاكس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكيفيه ليعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر على « مقالات » مونتانى ، وأصبح فيلسوفا . وإذا كان للمركيز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفاكس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعنى حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة المعرفة التأملية(١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفاكس . إن فى الجمع من الناس قساوة مثراكمة ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع .... ان الغمغمة الغاضبة فى حشد

من الناس من ألعن وأسوأ الضوضاء فى العالم »(٢٩) . لقد عاش من قبل فى ظل « الارهاب البابوى » حين كانت الجماهير تقذف الرعب فى المحاكم • ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية للمولعة بكسب الأنصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جرىء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالبا ما يحتج لى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس فى العالم رجل ملحد • واعترف بأنه لم يستسغ كل مافرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالا ، وآمن قدر طاقته »(٣٠)

وعندما عاد إلى انجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أمينا . وخدم شارل الثانى حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » السرية . ودافع عن حق جيمس فى عرش انجلترا ، ولكن عارض فى إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكى قصيرة • وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً فى انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثانى إلى وليم الثالث . والتزم هاليفاكس بما يعتقد هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب فى « أفكار وتأملات » : « ان الجهل يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والخجل يحول بينهم وبين الخروج منه »(٣١) • ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه فى كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال فى قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متعدلا (٣٢) .

وكان فى بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاح صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ روما ، ولكنى لا أذكر أن

هذه الأوزات عينت فى مناصب القناصل » (٣٣) (١)

ولا بد أن هالينا كس ابتسم ساخراً عندما حول « المؤتمر » نفسه الى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ المضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهى التى ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبتريانز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفيها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعمائة من رجال الدين الأنجليكانين المتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينازعون حق وليم فى الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون » من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلى »(٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين فى انجلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم فى موضوع بمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل فى تدعيم الالحاد الآخذ فى التفاقم(٣٦) « وصعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ؛ حين ألغى وليم — إذعاناً للشعور السائد بشكل طاغ فى اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفى الذى كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألفوا وليم يجنح إلى التسامح الدينى .

إن وليم الذى نشأ فى أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التى تقضى بإقصاء البرسبتريانز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح فى المقاطعات

---

(١) ان قأقأة الأوز المقدس المنزعج فى الكابيتول أيقظت الحامية الرومانية لتصد غارة ليلية قام بها السكلت فى ٢٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز دينى فى صداقاته . إن الكلفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة فى النفس وكأنها عامل من عوامل القدر . وفى ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الدينى على أنه فى حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التى سماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الالهية » وأخرى « الله »(٣٧) . ورأى فى الخلافات الدينية فى انجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحد التفاهم والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس المخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم « قانون التسامح » الذى أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذى عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين المتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلسان أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التى سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحى ، والتى نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العهاد بتأجيله إلى سن البلوغ . وبمقتضى « قانون تثبيت التسامح » الذى صدر فى ١٦٩٦ سمح للكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والكاثوليك من التسامح . وقام وليم ومجلسه فى مشروع « قانون التسامح الشامل » الذى قدم فى أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وجدد فى ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع فى الحرية الدينية فى انجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه فى أية دولة أوربية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للقاطعات للتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته فى انجلترا بازدياد قوة انجلترا إلى الحد الذى تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها فى الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا فى عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح للملك أنه ليس فى مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك فى انجلترا(٣٨) . وظل القساوسة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس فى دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا فى شىء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفى أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) والمتشددين ، الغلبة فى البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتعرض لعقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يدان باقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا فى دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأى كاثوليكى يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكى . وما كان يجوز لأى فرد أن يشترى أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد للسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أى فرد امتنع عن أداء القسم(٣٩) . وفى ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك فى أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إعادة جيمس الثانى إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للقدوم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره فى سان جرمان ، وخصص له ستمائة ألف فرنك سنويا ، وجهز له الآن أسطولا

و لى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا (٤٠) » . وفى ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه فى أيرلنده مع ألف ومائتى رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان فى ٧ مايو وألغى « قانون التسوية » الذى صدر فى ١٦٥٢ ، وأمر باعادة الأراضى التى انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتى شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندى . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده فى يونيه ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان فى معركة بوين (أول يوليه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرعان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بعقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الرعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالاستيلاء على المزيد من أراضى أيرلنده . وعاد وليم إلى انجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دى جنكل ، إرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى نحبه فى انتصاره فى بوين . وأوصى الملك جنكل باصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، واطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح(٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواى وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التى عرضها وليم . وفى مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكى يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت فى أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزى • ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخمر إلى جسد للسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندى الجـــديد ، وكان بروتستانتيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان وليم منهمكا فى تكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك فى أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذى وقعه وليم ومارى من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية المدارس والكليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليكى أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تتزوج من كاثوليكى(٤٢) . واستمرت مصادرة أراضى أيرلنده حتى « لم يعد هناك فى الواقع أرض تصادر »(٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليكى أيرلندى قضية فى محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التى كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف فى انجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أى بلد آخر سوى انجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة عمدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون فى الجزيرة ، خارج نطاق « البـــال » الانجليزى (قسم فى شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفى الستين عاما التى أعقبت الثورة الجليلة هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون فى ١٦٨٨ ، أى أن أزكى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية فى انجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفى ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة(٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذا فى الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط ايرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه فى القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف لليون من الجنيهات فى القرن السابع عشر(٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساسا من التوسع فى الصناعة وفى التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يكن الدخل كافيا ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفى يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييرا أساسيا فى مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومه بدفع ٧ ٪ فائدة سنويه عنه . وفى أخريات ١٩٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومه مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ٪ تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوه والبندقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يوليه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤½ ٪ وأقرضوها للحكومه بسعر ٨ ٪ ، وجنوا أرباحا اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية . وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومه قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض .

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسى فى استقرار الحكومة الانجليزيه المشهور منذ اعتلاء وليم ومارى عرش انجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقديه تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانونى ، فكانت أول عملة ورقيه حقيقيه غير زائفه فى انجلترا(٤٦) .(*)

واشتهر عهد مونتاجو فى وزارة الخزانه بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيده التى سكت فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى اختزنت أو صهرت أو صدرت . أما العمله المشوهه أو التالفه منذ أيام اليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت فى القوة الشرائيه جزءا لايستهان به من قيمتها الاسميه. ودعا مونتاجو أصدقاءه جون لوك واسحق نيوتن وجـــون سومرز ليعدوا لانجلترا عمله أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافه مسننه تتحدى التشويه . واستردوا العمله القديمه وسحبوها من التداول بقيمتها الاسميه ، وتحملت الحكومه الخسارة الناجمه عن ذلك . وصار لانجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مثار حسد أوربا ، ومثالا تحتذيه. وفى ١٦٨٩ فتحت بورصه الأوراق الماليه فى لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرعان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبى » (١٧١٩) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفى ١٦٨٨ أقام إدوارد لويد فى أحد مقاهى لنـدن شركة للتأمين تعرف الآن بـكل بساطه تبعث على الفخر باسم « لويدز » وفى ١٦٩٣ أصدر أدموند هالى أول نشرة وفيات بمعروفه. وأكدت هذه التطورات الماليه ووسعت دور المصالح القائمة على المال فى شئون إنجلترا ، وحـــددت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية معروفة فى القرن السابع الميلادى فى الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة فى الصين ١٢٧٥ ، وحاول عبثا ادخال أسلوب التعامل هذا الى ايطاليا . واستخدمت السويد أوراق العلة فى ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوست ١٦٩٠ .

الرأسماليين ـ الذين يعدون برأس المال والذين يديرونه ـ فى بريطانيا .

وفوق الاقتصاد الآخذ فى التوسع احتدمت المعركة السياسية حول النزاع على السلطة بين المحافظين (التورى) مالكى الأرض وبين الأحرار (الهويج) جامعى الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا مؤامرات لقتل وليم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن وليم مهتما بالشئون الداخلية فى إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها وبين هولنده (موطنه الأصلى) ودول أخرى ، لتقف جميعاً فى وجه لويس الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : «أنه استولى على انجلترا وهو فى الطريق إلى فرنسا(٤٨) » ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل أوالشعور المستولى عليه فقد كل شعبيته ولم يعد ملكا محبوبا . وقد يقسو دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكدونالد فى جلنكو لتأخرها فى إعلان ولائها له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظا غليظا فى المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يعن كثيرا بالسيدات . وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات المجتمع فى لندن « الدب الهولندى الوضيع(٤٩) » وأحاط نفسه بحراس ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه فى تفوق الهولنديين تفوقا عظيما على الإنجليز فى المقدرة الإقتصادية والتفكير السياسى والأخلاق وعلم أن كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثانى سرا . ووجد الفساد يستشرى حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، واتجر فى شراء أصوات أعضاء البرلمان . وكان الخير كل الخير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .

وحيث ترك وليم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقد بدأ عهد الوزراء الأقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة فى المسئولية والعمل ، والتى يسيطر عليها رجل واحد ، هو فى العادة وزير الخزانة . وفى ١٦٩٧ جاء أعداؤه المحافظون (التورى) أثر انقلاب إنتخابى ، ومن ثم حدوا من سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حد أنه فكر فى الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨مارس ١٧٠٢) وقدأنهك الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزائمه فى الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هيأ لانجلترا مشاركة أكيدة فى « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثنى عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوربا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلترا فى بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة مارى ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة الفؤاد ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشعور ، تلتمس العزاء والسلوى والجرأة فى صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها سارة جنجز الضاحكة الوفيه الشاكة الواثقة من نفسها المفعمه بالحياة والنشاط . وفى ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جون تشرشل ، وفى ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنمركى . وحالف التوفيق الزيجتين كلتيهما . ولكنهما لم تمسا العلاقه الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التى كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تناديها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كان أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفى ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والألم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت فى ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، فى أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تحيكان له الدسائس مع الملك المخلوع . وأمرت الملكة مارى أختها آن بطرد سارة من بطانتها ، ولكن الأميرة رفضت . وفى صباح اليوم التالى (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية ، وأبعد هو وسارة عن الحاشية ، وبدلا من أن تفترق الأميرة عن صديقتها ، تحدت الملك والملكة (وليم ومارى) وغادرت قصر هويتهول لتعيش مع سارة فى « سيون هاوس » . وفى ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن . وكثيرا ما كانت سارة تزوره هناك . وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدىء من غضب الملكة . ولهذا كتبت آن لسارة تقول :

« فى آخر مرة كان هنا وورستر ، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتعدى عنى ... وإنى لاتوسل إليك ، من أجل يسوع المسيح ، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية . وإنى لأؤكد لك أنك ان أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية ، فإنى لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك . فإن فعلت دون موافقتى ، (ولو قدر لى أن أوافق لما كان لى أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة ، ولا أرى العالم بعد ذلك ، وأعيش حيث ينسانى البشر جميعا(٥٠) » .

ولما لم يقم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو فى أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش ، ولما كان وليم فى مسيس الحاجة إلى قادة مهرة . فإنه أخلى سبيله وأعاده إلى سابق مكانته ونفوذه .

ولما أصبحت آن ملكة ، وكانت آنذاك فى سن الثامنة والثلاثين ، بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والمزله ، من طبيعة البلاط الانجليزى ، فلم يجد المولعون بالقصف والصخب واللهو والفجور إليه منفذا . وآووا ساخطين ناقمين إلى المقاهى والمواخير . وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع . وكتب ستيل « البطل المسيحى » . وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولنموذج حياتها ، بعض الأثر فى تحسين أسلوب المسرح الإنجليزى . وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حولت إلى فقراء رجال الدين فى الكنيسة الرسمية نصيب العرش فى « بشائر النهار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولاتزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا فى كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا فى سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان فى مقدور الملكة الآن أن تحدد هى السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يتربع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بارادته القوية كان قد أدخل انجلترا فى « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذى غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها ، والذى كانت قد رفعته فورة اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشقى فى حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب داميه باهظه التكاليف . وكانت لاتزال واقعه تحت تأثير صديقتها ، وهى آنذاك دوقه والمشرفه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصه . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذى كاد يكون مغناطيسيا على الملكه ، فى زيادة ثراء زوجها ، فمين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدنى جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قديرا فى الشؤن الماليه كما كان يمكن الاعتماد عليه فى تحويل الأموال فورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعه بقدر مايقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف عمره يضطلع بشئون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال »(٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه فى صراع الديكه ومباق الخيل والميسر ، وهى رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للفضيلة .

أن تجرد آن من الذكاء والفطنه سمح لوزرائها بالاستحواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التى كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان والوزراء ، لا بين البرلمان والملك . وفى ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات جديدة : روبرت هارلى وزيرا للدولة ، وهنرى سانت جون وزير للحرب. ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مسا خفيفا : فان هارلى كان يستخدم ديفو وسويفت ، كما كان سانت ـ بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد ـ ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما مشهورة . « أبحاث فى دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك محب لوطنه . وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة فى انجلترا فى ذلك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما انقلبا ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) فى عهد شارل الثانى ، وتوفى (١٧٥١) فى أول سنى « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوربا من عودة الملكية إلى عصر الاستنارة فى فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليما دينيا كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروى لنا : « كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذى كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩(٥٢) « وفى ايتون وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق فى الذكاء والتكامل الخالى من الهموم ، والانغماس فى الملذات والادمان على الشراب فى لباقة . وكان يفاخر بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يثمل . وبأنه يخادن ابهظ العاهرات نفقة فى المملكة(٥٣) . وفى لحظة أراد أن يكتفى فيها بواحدة تزوج من وريثة ثرية . ولكنها سرعان ماهجرته لخيانته ولكنه استمر ينعم بضياعها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد فى ١٧٠١ أن الانتخاب للبرلمان لايكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حقق فى مجلس العموم بنفوذ عظيم نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما يجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان انجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعهما لمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان. واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التعريفة الجمركية التى أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتهما. وفى ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندى، وفى ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التى بمقتضاها أصبحت المملكتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الدينى المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطانى واحد ، مع حرية مطلقة فى الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلا اسكتلنديا لمجلس اللوردات، وينتخب ٤٥ عضوا فى اسكتلنده لمجلس العموم، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو فى علم جديد واحد . «اتحاد جاك» ولم يرحب أهالى اسكتلنده بالاندماج، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة. ولكن ماجاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة. وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر باكورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلى وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) فى أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلى على الملكه عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكه آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكه التى أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجتها نظرات سارة وصوتها العنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت يتحررها من مداومتها على البقاء فى البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضاؤل نفوذها لدى الملكه : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — تورى » تقية محبة للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألحت على الملكة فى تأييد مشيئة مالبرو فى شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت ثائرة ساره عليها بشكل وقح طردتها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفى نفس السنة فاز «المحافظين» فى الانتخابات، بهارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين فى وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سويفت كاتب الكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سانت جون بلقب فيكونت بولنجبروك(١٧١٢). وابتهجت موسات لندن حين سمعن بنبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه فى العام ، وكلها لنا(*) » وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط للترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لايقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلى المدن ، وستمائة جنيه لمندوبى الريف(٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك فى انجلترا .

واعتزمت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفى ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خاصة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التى تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه. كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سير سولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة ٢٠ أبريل ١٧٦٩ ، لفولتير ، وهو فى الغالب كذوب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢½ ٪ من للبالغ التى كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التى كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهيم الضخم لأحد إلا لعين مهندسه . وكان مالبرو يشيد هذا القصر فى وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا فى البناء ١٧٠٥، ولم يتم فى ١٧١١ إلا نصفه الذى تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل(٥٥)، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه(٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (½ ٢ ٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علنى فى الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التى أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضاً فوضوه فى الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة(٥٧) » أما عن المنحة التى كان مالبرو يتقاضاها من مدينا فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر انجلترا إلى المنفى الذى اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش فى هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بتلر دوق أورمند الثانى ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه فى اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ماأدانوا به مالبرو(٥٨). ولكن الشعب البريطانى تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتفجر النزاع من جديد بين حزبى المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه فى ١٧٠١ حين مات آخر من بقى على قيد الحياة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان ـ رغبة منه فى احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه فى حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن — إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجرى فى عروقها بعض الدم الملكى البريطانى لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمانا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بمغيب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه فى العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك فى أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكثلكة . وأعرب الأحرار « عن تأييدهم التام لوراثة آل ها نوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض بولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أبى التخلى عن عقيدته الكاثوليكية . على أن بولنجبروك الذى لم تكن الديانات فى نظره إلا أثوابا متباينة تكسو الموت جلالا وشرفا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطأه الشديد فى هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهى كارهة . وبدا لمدة يومين اثنين أن بولنجبروك سيد الموقف .

ولكن فى ٢٩ يوليه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلح البروتستانت فى انجلترا لمقاومة آية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة بولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفى أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت نحبها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم وليم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتيه نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الآمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا ، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادىء اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديعة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهد ابتاق فى الآدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذلك العصر .